الترجمة العربية لرواية (هرتسل) "أرض قديمة – جديدة"

ونقض الخطاب الأدبي الفلسطيني لها

2013/7 – 20/19/18

تمهيد: **أ. د. عادل الأسطه**

في مقدمته لكتابه "في الأدب الصهيوني" (1966) يرى غسان كنفاني أن الحركة الصهيونية قاتلت بسلاح الأدب قتالاً لا يوازيه إلا قتالها بالسلاح السياسي. وأن الأدب الصهيوني كان "جزءاً لا يتجزأ ولا غنى عنه استخدمته الصهيونية السياسية على أوسع نطاق ليس فقط لخدمة حملاتها الدعاوية، ولكن أيضاً لخدمة حملاتها السياسية والعسكرية" (الآثار الكاملة، 467) ويذهب إلى "أن الصهيونية الأدبية سبقت الصهيونية السياسية، وما لبثت أن استولدتها وقامت الصهيونية السياسية بعد ذلك بتجنيد الأدب في مخططاتها ليلعب الدور المرسوم له في تلك الآلة الضخمة التي نظمت لتخدم هدفاً واحداً (467).

في العام 1968 "ترجم (مئير حداد) رواية (بنيامين زئيف (ثيودور) هرتسل) "أرض قديمة – جديدة" إلى اللغة العربية وقد صدرت الترجمة من قبل المجلس الأعلى للآداب والفنون التابع لوزارة المعارف والثقافة / تل أبيب، عن دار النشر العربي.

قدم للترجمة (ميخائيل آساف) وقال إنه يقدم الرواية إلى قراء العربية "لكي يطلعوا على النوايا الحقيقية التي كان يضمرها كبير زعماء الصهيونيين تجاه سكان فلسطين العرب".

ولم يكتف المترجم والناشر بنقل النص كما صدر في طبعته الألمانية، فقد زينا الترجمة العربية بصور عديدة برزت في ثلاثة وثلاثين موضعاً من طبعة الترجمة العربية، بعض هذه الصور يعود إلى فترات زمنية قبل قيام دولة إسرائيل، بل وقبل بدء النشاط الصهيوني فيها، وبعضها يعود إلى زمن بدء النشاط الصهيوني، وآخر إلى ما بعد قيام دولة إسرائيل.

نشرت رواية هرتسل بالألمانية في العام 1903، وما بين زمن كتابتها وزمن نشر الترجمة العربية خمسة وستون عاما حفلت بأحداث جسام أبرزها قيام دولة إسرائيل (1948) وتحول الشعب الفلسطيني إلى لاجئين، وسيرفع عرب فلسطين في العقود الأخيرة، في الخامس عشر من أيار، ذكرى النكبة، نكبة

الشعب الفلسطيني، وذكرى الاستقلال، استقلال الدولة العبرية / إسرائيل، الشعار التالي "ذكرى استقلالهم، ذكرى نكبتنا / يوم استقلالهم يوم نكبتنا".

الترجمة التي حفلت بصور، أراد ملصقوها بها خدمة أهدافهم، لم تكن بريئة، وقد تركت صدى في الخطاب الروائي الفلسطيني، بل وفي الخطاب الأدبي الفلسطيني بشكل عام، ما أدى إلى تصارع خطابات وروايات، وهذا ما أدركه كنفاني ومعين بسيسو وآميل حبيبي ومحمود درويش وآخرون. لقد قرأ هؤلاء الخطاب الصهيوني وأمعنوا النظر فيه، وقد تسلل هذا إلى نصوصهم التي حفلت ببعضه وبنقضه أيضاً.

في قصيدة "قال المسافر للمسافر: لن نعود كما ..." من ديوان "لماذا تركت الحصان وحيدا؟" (1995) يكتب محمود درويش:

" وفي الصحراء قال الغيب لي:
أكتب!
فقلت على السراب كتابة أخرى
فقال: أكتب ليخضّر السراب
فقلت: ينقصني الغيابُ
وقلت: لم أتكلم الكلمات بعد
فقال لي: أكتب لتعرفها
وتعرف أين كنت، وأين أنت
وكيف جئت، ومن تكون غدا،
ضع اسمك في يديّ وأكتب
لتعرف من أنا، واذهب غماما
في المدى ..
فكتبت: من يكتب حكايته يرث
أرض الكلام، ويملك المعنى تماماً. (ص112)

في هذه الورقة سأتوقف أمام بدايات صراع الخطابات في الأدب الفلسطيني، وأمام ترجمة رواية (هرتسل) ودلالات الصور التي حفلت بها، وانعكاس خطابها في الروايات والأشعار التي تعود لغسان كنفاني وآميل حبيبي ومحمود درويش. وهذه الظاهرة، ظاهرة صراع الأفكار والخطابات لفتت نظري منذ العام 1989 وأنا أعد رسالة الدكتوراه "اليهود في الأدب الفلسطيني ما بين 1913 و1987" وظلت تلح علي، فأنجزت في العام 1993 دراسة مطولة نشرتها في كتاب "الأديب الفلسطيني والأدب الصهيوني"، وفي الأعوام 2003 و2009 دراستين هما: "الأنا والآخر في رواية غسان كنفاني "عائد إلى حيفا" على ضوء صورتهما في رواية (ليون أوريس) "اكسودس" / الخروج" و "آميل حبيبي أديباً ومفكرا: نقض الفكر الصهيوني". وقبل عامين تمكنت من الحصول على الترجمة العربية لرواية (هرتسل) التي قرأتها بالألمانية أصلاً، ولاحظت ما تحفل به من صور، فأوحت لي بهذه الدراسة.

بدايات ظاهرة صراع الخطابات:

ارتاب الفلسطينيون، منذ وقت مبكر، في أفكار الحركة الصهيونية ومخططاتها، ما جعلهم يمعنون النظر في خطابها ليردوا عليه ويفضحوا أمره، وكان السباق في هذا نجيب نصار صاحب مجلة "الكرمل"، الذي قرأ بالانجليزية مقالاً عن الحركة الصهيونية وأهدافها، وعمل في العام 1905 على تعميمه لتوعية أبناء شعبه ولفت نظرهم إلى الخطر المحدق بهم. وفي العام 1913 سيخاطب الشاعر سليمان التاجي الفاروقي الخليفة الإسلامي، في حينه، منبهاً من مخططات الصهيونية التي مع تزايد نشاطها أذكت الصراع ما بين سكان البلاد وما بين القادمين الجدد من يهود أوروبا. وما إن بدأت الاضطرابات تسود في البلاد حتى وجدت صداها في النصوص الأدبية.

سيكتب الشاعر اليهودي (رئوبين) قصيدة عنوانها "أنشودة النصر" وسينشرها في جريدة (دوار هايوم)، وستعرب القصيدة ليقرأها القراء العرب، فلا تروق للشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان، ما يدفعه لنظم قصيدة تحت عنوان "في الرد على رئوبين شاعر اليهود".

العرب، في قصيدة "رئوبين"، أعداء وأشرار ولصوص يبنون بيوتهم بأموال اليهود ولا يحفظون الود والإحسان. إنهم قطاع طرق بدو وفلاحون يحركهم أبناء الارستقراطية الخبثاء المداورون. العرب جبناء لا يلبثون أن يهربوا كالنساء حين يخرج لهم رجال إسرائيل أبناء الشعب العظيم.

وسيرد طوقان على هذا التصور للذات والآخر بنقضه كلياً. اليهود لقطاء وجبناء يتوارون خلف الشبابيك، وهم يمصون دماء أبناء الشعوب الأخرى، وهذا أمر ظاهر ومعروف، فقد قاله (شكسبير) في "تاجر البندقية".

والقصيدتان؛ قصيدة (رئوبين) وقصيدة طوقان تذكران قارئ الشعر العربي بشعر النقائض عموماً. ثمة مديح للذات وهجاء للآخر، وثمة خطاب وخطاب آخر ينقضه.

في 60 ق20 سيكتب الكاتب ناصر الدين النشاشيبي رواية عنوانها "حبات البرتقال"، وباعث كتابتها هو اقتراح صديق، له، عليه أن يكتب رواية يرد فيها على فيلم "بن هور"، وهو فيلم، كما ورد على لسان الراوي في رواية النشاشيبي، يمجد البطولات اليهودية، وتتغنى بطلته فيه بأمجاد شعبها.

رواية النشاشيبي هذه تبرز الفلسطيني بصورة ايجابية، فهو يقاوم النازية وليس ضد اليهود من حيث هم يهود. إنه ضد الصهيونية وأفعالها، ولهذا لا يمانع سابا من إقامة علاقة مع فتيات يهوديات ألمانيات وقف إلى جانبهن إبان الحكم النازي. مأساة اليهود تكمن في الحركة الصهيونية التي لم تجن على الفلسطينيين والعرب وحسب، وإنما جنت على أبناء الشعب اليهودي أيضاً.

أرض قديمة – جديدة: الترجمة العربية

"أرض قديمة – جديدة" هي رواية (ثيودور هرتسل) الوحيدة الصادرة في العام (1903)، بعد إصداره كتابه "الدولة اليهودية" وفيها، عبر الخيال، يجسد الدولة اليهودية في فلسطين. يزور (فريدريك ليفنبرغ) وصديقه المسيحي (كنجز كورت) فلسطين فيرياها مستنقعات تكثر فيها الملاريا، ويريان مدن القدس ويافا وحيفا مدناً بائسة وفقيرة، فشوارعها قذرة، وسكانها بائسون يتسولون، والذباب يكثر في أجوائها. إن فلسطين جزء من الشرق البائس المتخلف الذي لابد من أن يتغير ليغدو جزءاً من أوروبا المتمدنة والمتطورة والحضارية. وعلى الغرب أن يأخذ بيد الشرق ليصبح الاخير على غرار الأول.

يتخيل (فريدريك) فلسطين بعد عشرين عاماً من سيطرة الحركة الصهيونية عليها، ويراها أرضاً يانعة وبساتين مزدهرة وطرقاً تشقها القطارات الكهربائية، ولا تقل شأناً عن الريفيرا الفرنسية وعن سويسرا أيضاً، ومصانعها لا تقل جودة عن مصانع ألمانيا.

هكذا تصبح فلسطين جزءاً من الغرب المتحضر، ولا تظل جزءاً من الشرق البائس.

الترجمة والتزييف:

سوف أورد مضمون الصور التي ألحقت بالنص المترجم، لعلها هي نفسها تبرز للقارئ مدلولاتها. أين يكمن التزييف إذن؟ الرواية، كما ذهبت، تقوم على فكرة أن الحركة الصهيونية ستحول المستنقعات التي هي جزء من الشرق البائس إلى جنة وقطعة من أوروبا المتحضرة.

وعلينا أن نلتفت إلى أن الترجمة صدرت في العام 1968 وأن الرواية كتبت في العام 1903، ونحن أمام زمنين للنص؛ زمن الكتابة ومن ضمنه الزمن المتخيل أيضاً، وهو عشرون عاماً بعد تأليف الرواية – يعني 1923 – وزمن الترجمة. طبعاً علينا ألا ننسى ما ألم بالعالم كله من تغيرات إلى الأمام في مجال الصناعة والتجارة والبناء والزراعة. وسوف أعقب شخصياً على مدلولات الصور كما أراها أنا، تاركاً للقارئ أن يقدم قراءته هو.

1 – ص11 صورة هرتسل

2 – ص13 صورة يوليا – الآنسة التي أحبها هرتسل ثم تزوجها سنة 1879.

3 – ص15 رسم لبطل القصة دافيد لوتفيك يجلس ماداً يده يتسول. وتحت الرسم العبارة: "وعندما غادر المقهى في صباه في زهاء العاشرة من عمره ..." (وهي من الرواية).

4 – ص42 صورة لميناء يافا 1898.

5 – ص43 صورة "هرتسل في يافا وبرفقته أعضاء الوفد الصهيوني أثناء زيارتهم للديار المقدسة لمقابلة قيصر ألمانيا ويلهلم الثاني في سنة 1898.

6 – ص57 صورة الباخرة ثيودور هرتسل في ميناء حيفا.

7 – ص61 صورة لحيفا أسفل منها فقرة من الرواية: "وعندما بلغا هضبة الشوارع أخذا يحصلان على انطباعات تامة عن هذه المدينة الرائعة".

8 – ص67 صورة لعرب ويهود وعبارات باللغات الثلاثة الانجليزية والعبرية والعربية "حياة طويلة من أخوة الشبيبة في إسرائيل". وتحتها عبارة: "من مظاهر الأخوة اليهودية – العربية في هذه البلاد".

9 – ص69 صورة الآنسة باولينا شقيقة هرتسل وقد أوحت إليه بشخصية مريم في هذه الرواية.

10 – ص73 ثلاث صور تظهر المرأة العربية في دولة إسرائيل وهي تزاول حق الانتخاب / وهي في مؤتمر نسائي مع عقيلة رئيس الوزراء. (بالشال)

11 – ص75 صورة لإحدى رياض الأطفال في قرية الطيبة / العربية

12 – ص102 صورة لمنظر عام لمرج يزرائيل.

ص103 صورة مدينة العفولة: المدينة التي نشأت في قلب المرج.

13 – ص105 ثلاث صور:

- المعبد البهائي في حيفا.
- كنيسة البشارة في الناصرة.
- مسجد السلام في حيفا.

وفقرة من الرواية "ولكن الكنس والمساجد والكنائس تقوم جنباً إلى جنب".

14 – ص111 صورة لممرضات: "التمسك بأسس حرية الفكر والتسامح ومحبة الغير" دورة لممرضات إفريقيات في مستشفى إسرائيلي.

15 – ص115 رسم تذكاري للمؤتمر الصهيوني الثاني في بازل سنة 1898 وأسفل منه صورة "بعد سبعين سنة – المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون في اورشليم 1968".

16 – ص117 صورة للعفولة وفيها آلات حديثة، وأسفل منها كتبت عبارة من الرواية: "ومن الذي جفف المستنقعات ...".

17 – ص118/ص119

صورة لغور الأردن جنوبي بحيرة طبرية كما كان عليه في سنة 1909 تقابله صورة المكان نفسه بما هو عليه زمن الترجمة 1968، وأعلى الصورة الأولى العبارة "إن كبار السن من بينكم يعرفون ما كان عليه" (الخطاب موجه للقراء العرب).

أما أعلى الصورة الثانية التي تضم رجالاً ونساء بملابس مدنية أوروبية فكتب: "نفس المكان كما هو عليه الآن".

18 – ص121 صورة لمعرض الكتاب الدولي في (أورشليم) وأسفلها العبارة: "رئيس الدولة في معرض الكتب العالمي الدوري في أورشليم".

19 – ص131 صورة لحفلة "افتتاح المؤتمر العالمي الأول في رحوبوت للبحث في موضوع العلم في خدمة الدول المتطورة وقد دعت إليه إسرائيل سنة 1963 وحضره ممثلو الدول النامية في آسية وإفريقية وأمريكا اللاتينية كما حضره كبار علماء الغرب والشرق.

20 – ص149 صورة لبيت العمال في الناصرة (المدينة العربية) وقد تبرع بتكاليف إقامته الفنان الأمريكي المعروف فرانك سبينازا.

21 – ص150 صورة لمقر نقابة العمال (الهستدروت) في تل أبيب.

22 – ص153 ثلاث صور لمعارض دولية صناعية وزراعية وتجارية في تل أبيب.

23 – ص154 صورة للميناء الجديد في أسدود وكتب أسفلها العبارة "هناك أمر آخر ... روح المبادرة".

24 – ص155 صورة لمصنع "تمناع" لاستخراج النحاس بالقرب من خليج ايلات وأسفل منها كتبت عبارة من الرواية هي "وأفاد شتانيك أن مصنعا".

25 – ص161 ثلاث صور:

- 1909 الاحتفال بإرساء الحجر الأساسي لمدينة تل أبيب فوق كثبان الرمال.
- 1910 بلدية تل أبيب بجانب الخزان الأول.
- 1967 بلدية تل أبيب: نساء ورجال أمام مبنى حديث. (من صحراء إلى عمران).

26 – ص165 صورة لقبر هرتسل في إسرائيل وتحته العبارة " ... وعند موتي ادفنوني رجاء إلى جوار صديقي فيشر ..." ضريح هرتسل بعد أن نقلت رفاته من مدفنها في فينا إلى إسرائيل 1949.

27 – ص171 صورة لترعة في مشروع المياه القطري وإلى جانبها عبارة "لقد صنع ايمان مهندسي الماء هذه العجائب".

28 – ص178 صورة للقدس قبل قيام إسرائيل 1948، حيث خمسة أشخاص يمشون في شارع موحش "شارع في أورشليم سابقاً" وأسفل الصورة العبارة: "يومذاك شاهدا فوق هذه الهضاب مدينة كئيبة متأخرة" (وهي من الرواية) (ص177).

29 – ص179 صورة للمكان نفسه وقد غدا مختلفاً عامراً، فيه سيارات ونساء عصريات وشوارع مسفلتة، وأسفل الصورة العبارة "نفس الشارع بعد ردح من الزمن".

30 – ص186 صورة لرجال عصريين في متحف إسرائيل في أورشليم.

31 – ص187 صورة لمتحف إسرائيل في اورشليم. "تحت هذه القبة البيضاء تعرض مخطوطات البحر الميت الشهير".

32 – ص189 صورة لساحة في الجامعة العبرية فيها ثلاثة رجال زوار "زوار في صحن الجامعة العبرية في أورشليم".

33 – ص197 صورة لعرب تحتها عبارة: "مهرجان رياضي لطلاب المدارس العربية".

34 – ص201 صورة لمبنى الكنيست "البرلمان الإسرائيلي" في اورشليم حيث يجري انتخاب رئيس الدولة وتسن قوانينها".

تناغم الصور وأفكار في الرواية:

تقوم الرواية على أفكار عديدة منها: اليهود في المنفى شحاذون بلا كرامة وسيغدون بشراً محترمين في فلسطين حين ينشئون دولتهم. فلسطين أرض جرداء فيها أقلية من العرب وحين يعود إليها اليهود سيعيدونها إلى ما كانت عليه وستغدو قطعة من أوروبا في نهايات ق19 وبدايات قرن 20. وستتعايش الأديان في هذه الدولة معاً. وسيجسد ديفيد لوتفيك الفكرة الأولى: من متسول في فيينا إلى قائد في الدولة الجديدة (الصورة في ص15 وما كتب أسفل منها)، وستجسد أكثر من صورة الفارق بين ما كانت عليه فلسطين قبل بدء المشروع الصهيوني، وما غدت عليه بعد عشرين عاماً من بدء تنفيذه (الصور ص103/102، ص117، ص118، 119، ص154، 155، ص161، 171، 178، 179) تردف هذه الصور وتعزز فكرة التحول المذهل المعجزة الصور الواردة في الصفحات: (111، 121، 131، 153، 155، 186).

وأما تقبل الدولة اليهودية لغير اليهود ورعايتها لهم فتظهره الصور في الصفحات (67، 73، 75، 149، 197)، ولا ضرورة لإعادة كتابة العبارات ثانية.

الصور الغائبة:

تحضر في الرواية شخصية عربية هي شخصية رشيد بك، وهو مثقف درس في برلين، ولا يمانع النشاط الصهيوني في فلسطين، فاليهود سيعودون بالنفع والبركة على سكان البلاد، وسيجلبون معهم الخير، ويقيم رشيد بك علاقة مع ديفيد لوتفيك وتكون العلاقة بينهما ودية. هكذا يقترح (هرتسل) التعامل مع سكان البلاد، فهل حل السلام والوئام بين سكان فلسطين والصهيونيين الأوائل؟

منذ وعد بلفور، وربما قبل ذلك بسنوات، بدأت الريبة تساور الفلسطينيين، فقد شكوا في نوايا المستوطنين، وأزم وعدم بلفور الوضع، فبدأت الاضطرابات والثورات، وأخذ الصدام يتصاعد إلى أن حلت نكبة 1948 التي شردت 650.000 فلسطيني أقاموا في الشتات في مخيمات أخذت مع مرور الأيام، تزداد بؤساً حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن: بيوت صفيح بائسة، بخاصة في لبنان. فهل أظهر مترجم الرواية وناشرها صوراً لما حل بسكان البلاد الذين لجأوا إلى المنافي؟

يبرز المترجم والناشر صوراً لمن بقي من سكان البلاد الفلسطينيين فيها، ولا يبرز أية صورة لأي مخيم من مخيمات اللجوء. هكذا يروي الإسرائيليون روايتهم فقط، وهكذا يرفقون بالترجمة صوراً لرياض الأطفال في القرى العربية في فلسطين، وأخرى للمرأة العربية المتمدنة التي تقابل عقيلة رئيس الوزراء الإسرائيلي والتي تدلي بصوتها في الانتخابات، وثالثة – أي صورا ثالثة – لبعض المدارس العربية وللشبيبة العربية في البلاد.

وهي لا شك تبدو، قياساً لواقع الفلسطينيين قبل العام 1948، خطوة للأمام، لكنها، في الوقت ذاته، تحجب الصور الكارثية التي نجمت عن قيام دولة إسرائيل، وفي هذا، لا شك، تزييف للحقائق، وفي هذا ما يذكرنا بما قاله معين بسيسو، ذات نهار، عن صورة دليلة في العهد القديم وعلاقتها بشمشون. شمشون بطل ودليلة الفلسطينية خائنة في نظر الرواية الإسرائيلية، لكن، ماذا لو روى الفلسطينيون الأوائل الرواية؟ كيف ستظهر صورة دليلة في روايتهم؟ هنا نعود إلى أسطر درويش في بداية هذه الدراسة: من يكتب حكايته يرث / أرض الكلام ويملك المعنى تماماً.

صراع الخطابات: الرواية الإسرائيلية والأدب الفلسطيني:

سوف أتوقف أمام ثلاثة أسماء أدبية فلسطينية بارزة لأظهر من خلال بعض نصوصها صراع الخطابات والروايات، ولعل هذه الأسماء هي الأبرز والأهم في هذا الجانب في الأدب الفلسطيني – على الأقل حسب اطلاعي.

غسان كنفاني: عائد إلى حيفا

هل قرأ غسان كنفاني رواية (ثيودور هرتسل)؟ لا أعرف إن كانت الرواية ترجمت إلى الانجليزية التي قرأ فيها كنفاني الروايات الصهيونية التي درسها في كتابه "في الأدب الصهيوني"، فقد كان يجيد الانجليزية ولم يكن يعرف الألمانية حتى يقرأ رواية (هرتسل) بها. ولكن قارئ كتابه المذكور يلحظ إشارته لترجمة "أرض قديمة – جديدة" إلى العربية (ينظر هامش 2، ص569 من الآثار الكاملة / الدراسات)، بل ويلحظ اتكاء كنفاني على ما ورد في الرواية في غير صفحة من كتابه (ص537، 569، 570، 571) والطريف أنه يشير إلى أن الترجمة صدرت في العام 1962 عن منشورات هانس دويتش فيرلاغ بالتعاون مع الشركة المحدودة للنشر في حيفا بإشراف لجنة هرتزل في القدس) ما يعني أن كنفاني اطلع على الرواية مترجمة، وهذا مهم جداً، لأن "عائد إلى حيفا" تحمل الخطاب ونقيضه – أعني الخطاب الصهيوني الذي برز في الروايات الصهيونية التي درسها كنفاني وحللها، ونقيضه الفلسطيني، وتحديداً خطاب كنفاني والجبهة التي انطوى تحت لوائها، وهي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في تحولاتها، بعد العام 1967، فقد تبنت الفكر الماركسي وأخذت تعمل بوحي منه.

يعد كتاب "في الأدب الصهيوني" أساساً لدراسة رواية "عائد إلى حيفا"، ففيه يتناول كنفاني تصور الحركة الصهيونية لذاتها وتصورها للآخر غير اليهودي. ثمة عنوان لافت اختاره كنفاني لأحد فصول كتابه هو: "العصمة اليهودية أمام عدم جدارة الشعوب الأخرى"، وثمة بذور لهذه الفكرة في رواية "ارض قديمة – جديدة"، وإن لم تبرز بشكل لافت فيها كما برزت في الروايات الصهيونية اللاحقة التي خرجت من معطف رواية (هرتسل) وبدت أكثر تطرفاً منها.

وهذه الروايات هي "لصوص في الليل" (لآرثر كوستلر) و "اكسودس" لـ (ليون اوريس) ... وغيرها، وقد درسها كنفاني بشكل مفصل وتوصل إلى ما توصل إليه. وقد عقدت شخصياً مقارنة بين روايتين "اكسودس" و "عائد إلى حيفا" (ينظر كتابي: جدل الذات والآخر: اليهود في الرواية العربية، 2012، ص73–ص86).

في "عائد إلى حيفا" التي تجري أحداثها بعد هزيمة حزيران 1967، حواران مهمان، أولهما بين الشخصية الرئيسة: سعيد. س وزوجته صفية، وهما في السيارة ذاهبان من رام الله إلى حيفا لزيارة بيتهما الذي تركاه، وللبحث عن ابنهما خلدون الذي نسياه في غمرة حرب 1948، وكان طفلا. وثانيهما بين سعيد.س وابنه خلدون الذي غدا دوف، وقد تربى، بعد ترك أمه وأبيه له هرباً، تربية صهيونية، فغدا ممثلاً للفكر الصهيوني، وهكذا فإن الحوار بين الأب وابنه البيولوجي / بين الفلسطيني والصهيوني، وهو حوار أفكار، يعكس رأي كنفاني في الأطروحات الصهيونية، – هو صراع خطابات.

" هذه هي حيفا إذن، بعد عشرين سنة" (آ.ث، الروايات، ص342).

" – لم أكن أتصور ابداً أنني سأراها مرة أخرى" (343)

" – أنت لا ترينها، إنهم يرونها لك" (ص344).

" – لقد فتحوا الحدود فور أن أنهوا الاحتلال فجأة وفورا، لم يحدث ذلك في أي حرب في التاريخ، أتعرفين الشيء الفاجع الذي حدث في نيسان 1948، والآن، بعد لماذا؟ لسواد عينيك وعيني؟ لا. ذلك جزء من الحرب. إنهم يقولون لنا: تفضلوا انظروا كيف اننا أحسن منكم وأكثر رقيا. عليكم أن تقبلوا ان تكونوا خدما لنا، معجبين بنا ... ولكن رأيت بنفسك: لم يتغير شيء ... كان بوسعنا أن نجعلها أحسن بكثير" (ص344).

إن العبارات السابقة ترد على لسان سعيد.س، باستثناء واحدة ترد على لسان زوجته صفية هي "لم أكن أتصور أبداً أنني سأراها مرة أخرى".

وتحيلنا هذه العبارات إلى رواية "أرض قديمة – جديدة" وإلى الروايات الصهيونية التي درسها كنفاني في كتابه، والمشار إليها آنفاً، فهي تحمل الرؤية ونقيضها؛ الرؤية الصهيونية التي درسها كنفاني في كتابه، والمشار إليها آنفاً، الرؤية الصهيونية التي تخيلها (هرتسل): فلسطين بعد عشرين عاماً من سيطرة الحركة الصهيونية عليها، وتحولها من أراض جرداء ومن مستنقعات تكثر فيها الملاريا إلى قطعة

من أوروبا، حيث المزارع الزاهرة والمصانع الحديثة والشوارع والقطارات الكهربائية. بل وتذكرنا بشخصية رشيد بك في رواية (هرتسل) وما قاله عن ازدهار البلاد بعد مجيء اليهود إليها: "لقد أغنانا اليهود، فعلام نتذمر منهم" (ص103 من الترجمة العربية)" لقد ازدادت ايراداتنا إلى درجة كبيرة، كما ازدادت صادراتنا عشرة أضعاف بعد أن حظينا بأحسن طرق للمواصلات مع العالم كله. حتى لقد ازدادت قيمة الأملاك جميعها بعد قدومكم" (ص100). ورواية (هرتسل) عموماً تحفل بعشرات العبارات التي تظهر ما فعلته الحركة الصهيونية في فلسطين، وما أنجزته من مشاريع، والتي تتغنى بالذكاء اليهودي وتفوق اليهود.

يبدو رشيد بك في رواية (هرتسل) معجباً بما حدث من تغيرات. كأن (هرتسل) أراد أن يقول: ستصبحون أيها السكان المحليون معجبين بنا، وسترضون أن تكونوا خدماً لنا. وهذا ورد في رواية كنفاني على لسان سعيد.س، لا ليقر به وليعترف وإنما لينقضه "ولكن رأيت بنفسك ... لم يتغير شيء ... كان بوسعنا أن نجعلها أحسن بكثير".

في موقع آخر من رواية كنفاني ترد الفقرة التالية: "إن المعجزة التي يتحدث عنها اليهود لم تكن إلا وهما. في البلد هنا ردة فعل سيئة جداً، وهو عكس ما أرادوه حين فتحوا حدودهم أمامنا. لذلك فأنا أتوقع يا صفية أن يلغوا ذلك القرار قريباً جداً، وهكذا قلت لنفسي، لماذا لا نقتنص الفرصة ونذهب؟" (ص360)

والمعجزة التي يتحدث عنها اليهود هي ما ورد في رواية "أرض قديمة – جديدة": ما سنفعله هو معجزة. تزدهر فلسطين، في ظل النشاط الصهيوني، وتغدو قطعة من الجنة، وما مشاريعهم سوى عجائب، وهذا ما يعترف به المسيحي (كينغزكورت). " .... قناة البحر الميت. يبدو أن هذه هي إحدى عجائب الدنيا ..." (ص166)، بل إن المزارع هي أيضاً أنموذجية، حتى إحدى المزارع التي هي سجن يحولها السجناء إلى مزرعة أنموذجية. (ص171/170).

يتجسد صراع الخطابات في رواية كنفاني في الحوار الذي جرى بين سعيد.س وابنه خلدون / دوف. كان خلدون طفلاً حين غادر والداه حيفا في غمرة الحرب وارتبكا ولم يعودا لأخذه، وفي غيابهما تتبناه عائلة يهودية وتربيه تربية يهودية. في البداية تقول العائلة القادمة من بولندا، والتي هي بلا أبناء، تقول لخلدون حين يكبر، وقد اختارت له الاسم دوف، تقوله له: إن والديه يهوديان قتلهما العرب في حرب 1956، ثم، فيما بعد، تخبره العائلة بالحقيقة، وتقول له إن والديه عربيان، تركاه طفلاً في حرب 1948 وهربا. وتكون العائلة ربته تربية يهودية، حيث ذهب إلى الكنيس وأكل الكوشير والتحق بالجيش

الإسرائيلي. "بعد أن عرفت أنكما عربيان كنت دائماً أتساءل بيني وبين نفسي: كيف يستطيع الأب والأم أن يتركا ابنهما وهو في شهره الخامس ويهربان؟ وكيف يستطيع من هو ليس أمه وليس أباه أن يحتضناه ويربياه عشرين سنة؟ عشرين سنة؟ أتريد أن تقول شيئاً يا سيدي" (ص401).

يركز الخطاب الصهيوني، باستمرار على أن العرب ليسوا جديرين بفلسطين، إذ لو كانوا جديرين بها لدافعوا في حرب 1948 عنها. كما تركز الروايات الصهيونية التي خرجت من معطف رواية (هرتسل)، مثل رواية (كوستلر) "لصوص في الليل" ورواية (ليون اوريس) "اكسودس"، على أن العرب عاجزون ولا يجيدون سوى البكاء. إنهم كسالى ينتظرون أن يفعل غيرهم لأجلهم، فيم اليهود نشيطون ومبادرون. وقد قالت لنا الصور المرفقة في الترجمة العربية للرواية "أرض قديمة – جديدة" هذا.

هكذا كانت فلسطين قبل مجيئنا إليها. هكذا غدت فلسطين بعد مجيئنا إليها. وفي رواية كنفاني تقرأ هذا الخطاب على لسان خلدون / دوف:

" – كان يمكن لذلك كله ألا يحدث لو تصرفتم كما يتعين على الرجل المتحضر الواعي أن يتصرف" (406)

و:

" كان عليكم ألا تخرجوا من حيفا. وإذا لم يكن ذلك ممكناً فقد كان عليكم بأي ثمن ألا تتركوا طفلاً رضيعاً في السرير. وإذا كان هذا مستحيلاً فقد كان عليكم ألا تكفوا عن محاولة العودة ... أتقولون إن ذلك أيضاً كان مستحيلا؟

لقد مضت عشرون سنة يا سيدي! عشرون سنة! ماذا فعلت خلالها كي تسترد ابنك؟ لو كنت مكانك لحملت السلاح من أجل هذا. أيوجد سبب أكثر قوة؟ عاجزون! عاجزون! مقيدون بتلك السلاسل الثقيلة من التخلف! ... ولقد أمضيت عشرين سنة تبكي ... هذا ما تقوله لي الآن؟ أهذا هو سلاحك التافه المفلول؟" (ص406 و409).

يركز (هرتسل) في روايته على أن الدولة الجديدة في فلسطين ستكون جزءاً من الغرب المتقدم الحضاري في الشرق المتخلف البائس. هكذا يرى دوف العرب: إنهم بائسون متخلفون لا يجيدون إلا البكاء ولا يتصرفون كما يتعين على الرجل المتحضر الواعي أن يتصرف. وسيقرأ قارئ رواية كنفاني صفحة كاملة ترد على لسان سعيد.س يرد فيها على كلام دوف / الخطاب الصهيوني المتناقض الذي

يرى تارة أن الظلم لا يصحح بظلم، وطورا أن ضعف الآخرين – أي العرب – هو ما يجيز لليهود أن يفعلوا ما فعلوه بفلسطين: "إن خطأ زائد خطأ لا يساويان صحا، ولو كان الأمر كذلك لكان ما حدث لايفرات ولميريام في اوشفيتز صوابا" (ص410).

أميل حبيبي: الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل:

في رواية "أرض قديمة – جديدة" يهودي له تابع مسيحي (فريدريك ليفنبرغ وكينغزكورت) وغالباً ما يبدي المسيحي إعجابه بما يرى من معجزات حققها اليهود في فلسطين. وفي رواية اميل حبيبي "المتشائل" (1974) يهودي له تابع هو سعيد العربي.

ابتداء أشير إلى أن دافع آميل حبيبي لكتابة روايته، كما قال في إحدى المقابلات التي أجريت معه، هو الرد على وزير المعارف الإسرائيلي في 60 ق20 (ايغال ألون) الذي قال إنه لا يوجد شعب فلسطيني ولم يوجد عرب في فلسطين، ولو كان هناك شعب لكان له أدب. وهكذا تفرغ آميل ليكتب روايته.

والسؤال الذي يثيره الدارس هو: هل كانت رواية (هرتسل) من قراءات آميل حبيبي؟ لقد صدرت الترجمة التي اعتمد عليها في العام 1968، في فلسطين حيث كان آميل مُقيماً هناك، ويتربع في الوقت ذاته على رئاسة تحرير جريدة "الاتحاد" الناطقة باسم الحزب الشيوعي، عدا أنه كان عضواً في البرلمان الإسرائيلي (الكنيست)، ما مكنه من الاحتكاك بنواب يهود يمثلون أحزاباً صهيونية تجسد مشروع (هرتسل) على أرض الواقع وتدافع عنه، وأحد هذه الأحزاب كان وراء إصدار الترجمة العربية للرواية.

وما من شك في أن آميل الذي كان يكتب مقالتين أسبوعياً ينشرهما في "الاتحاد" باسم (جهينة)، كان غالباً في حالة صدام مع الأحزاب الصهيونية، ما يعني أن مقالاته في جانب منها هي رد على الخطاب الصهيوني الذي تتبناه تلك الأحزاب وتنفذه على أرض الواقع.

آميل وبطله سعيد:

سعيد أبو النحس المتشائل هو بطل رواية آميل حبيبي وهو مؤلفها الضمني، فهو الذي يكتب رسائله ويرسلها إلى الكاتب الحقيقي، فالرواية تبدأ بعبارة كتب إليّ سعيد أبو النحس المتشائل قال"، ويروي سعيد قصة حياته في دولة إسرائيل، منذ عاد إليها متسللاً، يوم نشأتها وطرد الفلسطينيين منها. ويكاد

سعيد يقتل في أثناء هذه العودة لولا أن الرصاصة التي أطلقت عليه أصابت الحمار فنفق، وهكذا كانت حياة سعيد في دولة إسرائيل بفضل الحمار، تلك الدابة المسكينة. ويشفع لسعيد دخوله إلى الدولة الناشئة وعدم طرده إلى خارج حدودها أنه ابنٌ لشخص كان يقدم خدمات للدولة ولمؤسسيها حتى قبل قيامها، وأنه هو – سعيد نفسه – سيواصل مهمة أبيه، فيخدم الدولة. وهكذا يقوم على خدمتها إلى حين، ثم يقرر التوبة، ويؤثر أن يبيع البطيخ على العمالة، بل ولا يكترث للمضايقات التي سببها له رجال المخابرات.

وسعيد شاب مثقف مطلع على الأدب العربي القديم وعلى الآداب العالمية الكلاسيكية مثل رواية (فولتير) "كنديد" ورواية (ياروسلاف هاتشيك) "الجندي الطيب شفيك" وبعض مسرحيات (شكسبير) مثل "عطيل" و"يوليوس قيصر"، كما أنه قارئ لأشعار شعراء المقاومة الفلسطينية في الأرض المحتلة مثل محمود درويش وتوفيق زياد وسميح القاسم وسالم جبران وسميح صباغ، فلا تخلو الرواية من أسطر أو مقاطع شعرية من أشعارهم.

وقد قاربت شخصياً، في دراسة مطولة، أوجه الشبه بين الكاتب الحقيقي والمؤلف الضمني – أي بين أميل وسعيد – وتوصلت إلى أن في سعيد الكثير الكثير من آميل. (تنظر دراستي في مجلة "مشارف" / حيفا، آذار 1996). وقد اعترف آميل نفسه، في آخر مقابلة أجريت معه في مجلة "مشارف" التي كان يرأس تحريرها، أنه حين كان يكتب المتشائل كان يكتب عن نفسه (مشارف، أيار، 1996).

يمتلك سعيد اللغة العربية الفصيحة الخارجة من رحم كتب التراث: من القرآن الكريم ومن الشعر العربي ومن بخلاء الجاحظ ومن رسالة غفران المعري ومن كتب أدب الرحلات أيضاً. كما أنه يتمثل بطل مقامات بديع الزمان الهمذاني تمثلاً شبه كلي، فلا تحلو الرواية من محسنات بديعية وتضمين أبيات شعرية، وفوق هذا كله، بل وأهم من هذا كله، أن بطل الرواية يتصف بما اتصف به بطل المقامة: التغابي. فسعيد ليس غبياً وإنما هو متغاب؛ ولأجل البقاء في فلسطين يريد أن يداري. كأنه ينفذ ما ورد في المثل الشعبي: حب وواري وأبغض وداري"، وهكذا فإنه لا يحب الدولة العبرية. إنه يبغضها ولكنه لا يظهر هذا فيداري، ويضطر للتعاون معها من هذا الباب، باب المداراة، فالفضيلة الأولى هي البقاء في الوطن وفي حيفا!

يسير سعيد دائماً مع معلمه يعقوب الذي يشرف عليه ويقترح عليه مهمات يقوم بها لخدمة الدولة، وما يقترحه يعقوب هو من اقتراح الرجل الكبير – رجل المخابرات الذي لا يظهر. ومن خلال تغابي سعيد ندرك ما هو موقفه من هذه الدولة، ومن خلال الحوار بينه وبين شخوصها اليهود يظهر لنا

مكنون الخطاب الصهيوني ودحض سعيد، من خلال تجاهله وتغابيه، له، حتى إن معلمه يكاد يكتشف حقيقة سعيد، فيقول له غير مرة: "كنت أحسبك حمارا فإذا أنت أحمر" – أي شيوعي زنديق، و "إن إفراطك في الولاء للدولة إنما هو تمويه على "تفريطك"، وثمة فارق بين الدالين: إفراط وتفريط: أفرط في الولاء، فرط في الأمر.

ونظراً لأنني أنجزت دراسة مفصلة في دحض آميل للفكر الصهيوني، في روايته "المتشائل"، وقدمتها لمؤتمر جامعة البتراء في العام 2009، وهي منشورة على مواقع الكترونية عديدة تحت عنوان "اميل حبيبي أديبا ومفكرا" فإنني هنا، حتى لا أكرر الكتابة، سألجأ إلى اقتباس فقرات من المتشائل تبدو رداً على ما ورد في رواية (هرتسل)، بل إن بعض الفقرات التي ترد في رواية حبيبي على لسان الشخصيات اليهودية ليست سوى إعادة لما ورد على لسان شخصيات (هرتسل) وإن بصياغة أخرى.

مثال 1:

في الرسالة الرابعة من الكتاب الثاني "باقية"، وعنوانها "كيف سبقت العروبة الأصيلة، بالتشمير، عصر التشمير" يأتي سعيد على العلاقة بين أبناء مستوطنة (زخرون يعقوب) والفرادسة – أبناء قرية الفريديس العرب –، وفيما بعد أبناء غزة، وتحديداً بعد هزيمة 1967، ويطنب سعيد في الإشادة بجهود العمال الفلسطينيين في بناء دولة إسرائيل. كأنه يرد على ادعاءات الصهيونية القائلة بأن العرب أبناء الصحراء ولا يجيدون إلا الخراب. يقول سعيد:

"فمن شيد المباني الشاهقة في هذه البلاد، وشق طرقها العريضة، وزفتها وأحكم الاستحكامات، وحفر الملاجئ؟؟ ومن زرع القطن، ثم جناه ثم ...." (ص112).

"من شيد المباني وشق الطرق وحرث الأرض وزرعها، في إسرائيل، غير العرب الباقية في إسرائيل؟ فالعرب الباقية، صبرا ،فيما احتلته دولتنا من أرض لهم لم يجد لها أحمد الشقيري متسعاً في ملفات خطبه الرنانة". (ص113)

مثال 2:

في الرسالة الثالث من الكتاب الثالث "يعاد الثانية"، وعنوانها "حديث شطط في الطريق إلى سجن شطة" حوار بين سعيد ومعلمه يظهر لنا الروايتين بشكل لافت، حتى أن هذه الرسالة لتحيلنا ليس إلى

رواية (هرتسل) وحسب، بل وإلى الروايات الصهيونية التي خرجت من معطفها "لصوص في الليل" و "اكسودس".

يرد على لسان مصطحب سعيد إلى السجن، وقد سجن سعيد لفترة قصيرة، بسبب غلطة ارتكبها، يرد ما يلي:

"بل إن هناك من كبارنا كبارا يعتقدون بأننا نعامل العرب داخل السجون معاملة أفضل منها خارج السجون، والأخيرة ممتازة كما تعلم، وهؤلاء الكبار موقنون أننا بذلك، نشجعهم على الاستمرار في مقاومة رسالتنا الحضارية في المناطق الجديدة، مثلهم مثل الإفريقيين آكلة لحوم البشر الذين كفروا بالنعمة" (ص173).

تظهر الترجمة العربية للرواية، من خلال الصور، صوراً مختلفة للعرب في دولة إسرائيل تظهرهم حضاريين: لباس المرأة، دور حضانة الأطفال، المرأة تدلي بصوتها في الانتخاب. وفي رواية (هرتسل) إشارة إلى مزرعة نموذجية، هذه المزرعة هي مستوطنة سجناء – حتى السجناء اليهود سيكونون فاعلين – (ص171/170) والإشادة بالعالم المتحضر عديدة في رواية (هرتسل) (ص160) "كانوا صفوة مختارة من أبناء العالم المتحضر".

يتلو الفقرة المقتبسة أعلاه من رواية "المتشائل" حوار بين سعيد ومقتاده إلى السجن، يأتي فيه الإسرائيلي على حسن تعامل الدولة العبرية مع رعاياها العرب، فهم يبنون سجوناً جديدة إلى جانب السجون القديمة ويزرعون من حولها الأشجار الظليلة، ويهدمون بيوت العرب في الخارج" لنقطع دابر الجرذان التي عششت فيها فننقذهم من الطاعون" (ص174) وفي هذا الحوار يقول الرجل الكبير:

"الخضرة، الخضرة على يمينك وعلى يسارك وفي كل مكان. أحيينا الموات وأمتنا الحيات (وكان يعني الأفاعي)، ولذلك أطلقنا على حدود إسرائيل القديمة اسم "الخط الأخضر" فما بعدها جبال جرداء وسهول صحراء وأرض قفراء تنادينا أن أقبلي يا جرارات المدنية!"

ولو كنت معي، يا ولد، حين عبرنا طريق اللطرون نحو أورشليم لرأيت أمامك الخط الأخضر مرسوماً بالفعل على الطبيعة نفسها بخضرة جبالنا المكسوة بأشجار الصنوبر، الشجرة تخاصر الشجرة والغصن يصافح الغصن وفي ظلها يتعانق المحبون. ثم لكنت سترى، قبالة جبالنا المكسوة، جبالكم العارية حتى بلا أسمال تخفي عوراتها المكشوفة صخوراً ظلت تبكي ربع قرن حتى سحت عنها كل

التربة. دعونا نكفكف دموع الصخرة، وأما أنتم فلا تكفوا عن الانشغال بدموعكم وأنتم تبنون القصور في أعالي الصخور" (ص176/175) سيرد سعيد على كلام المعلم الكبير رداً ساخراً لئيماً هو: " – ألهذا هدمتم قرى اللطرون، عمواس ويالو وبيت نوبا، وشردتم أهاليها، يا معلمي الكبير"؟ (ص176).

ويعد كلام المعلم الكبير تلخيصاً لمضمون رواية "أرض قديمة – جديدة" ولفكرتها: فلسطين أرض جرداء جعلت منها الحركة الصهيونية جنة. بل إن كلامه يذكر بما ورد على لسان دوف في رواية كنفاني "عائد إلى حيفا" فيما يخص تصور الصهيونيين للعرب: العرب عاجزون يعيشون في الأحلام، ولا يجيدون سوى البكاء.

ما إن اقتربا من السجن حتى وقع تغيير فجائي في وجه الطبيعة من حوليهما. "زالت الخضرة في طرفة عين فلم تعد العين ترى سوى أرض جرداء وصخور قمراء، على اليمين وعلى اليسار وعلى امتداد البصر، كأنما كنا نشاهد مسرحاً هبط في خلفه منظر وارتفع في مكانه منظر". (ص177) فقال سعيد متهكماً، وهو يتظاهر بالجهل بالجيوبوليتكا: "ها نحن خرجنا عن الخط الأخضر ودخلنا في خط العرب الأغبر الذين تركوا أراضيهم أنتيكا" (ص177) ولم يعجب كلام سعيد المعلم الكبير فزجره وصاح: كنت أحسبك حمارا فإذا أنت أحمر".

ما قاله سعيد هنا يذكر بكلام سعيد.س في رواية كنفاني: لم يتغير شيء، كان بوسعنا أن نجعلها أفضل بكثير.

مثال 3:

في الرسالة السابعة من الكتاب الثالث "يعاد الثانية" يكتشف سعيد زيف ادعاءات المعلم الكبير، ويذكر هذا، بما ورد في المثال الأول: "فمن شيد المباني ... و ... و ....". عنوان الرسالة هو: "وجهتا نظر في مصيبة اسمها الطوق"، وهنا يحل سعيد ضيفاً على أهل قرية فلسطينية يعمل أهلها في الكيبوتس الاسرائيلي الذي لا يستغني أهله عن الأيدي العاملة العربية، فما إن تحاصر القرية العربية بسبب أمني، حتى تجد سكان الكيبوتس يتوسطون لدى أمن الدولة من أجل أن يفكوا الطوق عن سكان القرية، فيعود هؤلاء للعمل في المزارع والمصانع. يقول أحد سكان القرية السعيد: لا يمضي أسبوع على التطويق حتى تتوق أراضيهم إلى أيدينا الماهرة، فيتوسطون لفك الطوق، فنعود إلى العمل في حقولهم" ص201).

وتسأله يعاد الثانية: لماذا أنتم؟

"قال: لأنها كانت حقولنا. أنبتناها وسوف ننبتها. تحنو علينا كما نحنو عليها. وأما هذا الحنو فقد عجزوا عن مصادرته" وهنا ينفلت لسان سعيد من عقاله ويصيح مندهشاً: "فالخضرة نبت سواعدكم، إذن، لا كما ادّعى الرجل الكبير" ص(201).

والعبارة الدالة هي "لا كما أدّعى الرجل الكبير".

محمود درويش: طللية البروة

يعد محمود درويش قارئاً جيداً للأدبيات العبرية، ولم يكتف بقراءتها وإنما أخذ يحاورها من على صفحات مجلة "الجديد" التي كان يرأس تحررها حين كان مقيماً في حيفا حتى العام 1970، وله مقالات عديدة حول قصائد وقصص وروايات عبرية. ويعد خطابه الشعري في جانب لا بأس به منه ردا على الخطاب الفكري الصهيوني، بل إن بعض عبارات ذلك الخطاب تحضر في أشعاره على لسان الشخوص الذين يحضرون في قصائده.

وقصيدته "الكتابة على ضوء بندقية" مثال جيد لما أذهب إليه، وقد توقفت أمامها في كتابي "الأديب الفلسطيني والأدب الصهيوني" (1993). ولا أستبعد أن تكون رواية (هرتسل) من قراءات الشاعر الذي تغنى بجمال الجليل في دواوينه المبكرة الأولى "أوراق الزيتون" و"عاشق من فلسطين" و"آخر الليل"، فغابة الزيتون كانت دائماً خضراء، ولم تكن أراضي جافة ومستنقعات. وكروم أجداده سلبها القادمون من وراء البحار، وقد علمه أبوه حب الأرض ونهاه عن السفر، لأن من ليس له وطن ليس له في الثرى ضريح. وحتى حين غادر فلسطين في العام 1970 ظلت هذه امتداداً لروحه، وظل يحن إلى عصافير الجليل.

في ديوانه "كزهر اللوز أو أبعد" يكتب الشاعر غير قصيدة عن المنفى، والمنفى يذكره بالبلاد التي كان فيها وما يجريه الآخر الصهيوني فيها على الأرض التي ستفيض، حسب الرواية الصهيونية، سمنا وعسلا:

" هل نطأ الآن أرض الحكاية؟ قد

لا تكون كما نتخيل "لا هي سمن ولا عسل"

والسماء رمادية اللون"؟ (ص142)

الأرض التي سيزرعها الصهيونيون أشجاراً جديدة، بدلاً من أشجار الزيتون، حتى يغيروا طبيعتها لتتلاءم وما ينشدون: أن تغدو قطعة من أوروبا. لقد حدث ما حدث عام 1948 وكان الشاعر في السابعة، يومها لم

"أعرف المفردات لأعرف أسماء أشجارنا ...

وأسمّي الطيور التي تتجمع فيّ بأسمائها.

لم أكن أحفظ الكلمات لأحمي المكان

من الانتقال إلى اسم غريب يسيّجه

الأكاليبتوس. اللافتات تقول لنا:

لم تكونوا هنا". (ص158)

تغيير معالم المكان، وزراعة أشجار الأكاليبتوس ونكران وجود شعب في فلسطين "فلسطين أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض" هو ما تقوم به الصهيونية وما تقوله، ويرد عليها الشاعر بقوله: "تلك آثارنا".

إن ما فعلته الصهيونية بفلسطين هو ما جسدته الصور المرفقة بالترجمة، وجهدت الصهيونية على إبرازه، لتقول للعالم: نحن من يستحق هذه الأرض. ولكن ماذا فعلت الصهيونية بسكان البلاد؟

"أقول له: من هو؟

يقول صدى من بعيد. هو الواقعي

هنا. صوت أقدارنا هنا. سائق

جرافة عدّلت عفوية هذا المكان

وقصت جدائل زيتوننا لتناسب قصة

شعر الجنود، وتفتح شِعْبا لبغل

نبي قديم. هو الواقعي، مروّض

أسطورة، ثالث الجالسين على صخرتين

شيخا – تأبط طفلا، وطفلا تورّط

في حكمة الشيخ" (ص166)

الفكرة هذه يعيد درويش صياغتها في "طللية البروة" التي ظهرت في ديوانه الأخير الذي صدر بعد وفاته" لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي" (2009)

لا يتشابه درويش فيها مع كنفاني وحبيبي ليقول: "كان بوسعنا أن نجعلها أفضل بكثير "أو" فالخضرة نبت سواعدكم، إذن، لا كما ادّعى الرجل الكبير"، وإنما أراد أن يقول: نحن نريد أن نكون كما نريد نحن أن نكون، لا كما تريدون أنتم لنا أن نكون. وحسب رواية (هرتسل) فإن الحركة الصهيونية أرادت أن تجعل من فلسطين قطعة من أوروبا، وأن تأخذ بيد أهلها وتحضرهم، هكذا أخذت الجرافات تعدل جغرافية هذا المكان / فلسطين، وقصت جدائل الزيتون لتناسب قصة شعر الجنود / الرجل المتحضر الأوروبي الهيأة. مروض الأسطور / مروض الأرض – وكتب (هرتسل) لروايته عنوانا فرعياً هو: "إذا أردتم فإنها ليست خرافة" – لا يرى الشاعر يوم كان طفلاً وجده الحكيم كما هما" لا يرانا كما نحن" إنه يريدهما كما يراهما هو أو كما يود أن يكونوا من وجهة نظره.

في "طللية البروة""تبدو الفكرة أوضح. كان درويش في السابعة من عمره يوم غادر وأهله قريتهم خوفاً من المجازر. ولأن أهله لم يستطيعوا العيش في المنفى لاجئين، فقد استبد بهم الحنين إلى قريتهم، ما جعلهم يستأجرون سمسار حنين حتى يعيدهم إلى البروة، وقد عبر درويش عن هذا في كتابه النثري "في حضرة الغياب" (2006). ولم يسترجع الشاعر البروة أو يكتب عنها الكثير. ربما تعد قصيدته "في يدي غيمة" من ديوان "لماذا تركت الحصان وحيدا؟" (1992) أبرز قصيدة أتى فيها على عالم البروة في العام 1948 و ما قَبْله:

"سبع سنابل تكفي لمائدة الصيف

سبع سنابل بين يديّ. وفي كل سنبلة

ينبت الحقل حقلا من القمح. كان

أبي يسحب الماء من بئره ويقول

له: لا تجف. ويأخذني من يديّ

لأرى كيف أكبر كالفرفحينة

أمشي على حافة البئر: لي قمران

واحد في الأعالي

وآخر في الماء يسبح ... لي قمران

واثقين، كأسلافهم من صواب

الشرائع ... سكوا حديد السيوف

محاريث..." (ص22)

و

"لا أريد من الأرض أكثر من

هذه الأرض: رائحة الهال والقش

بين أبي والحصان".

وحين عاد الشاعر وأهله إلى البروة في العام 1948 وجدوها قد سوّيت بالأرض، ووجدوا على أنقاضها (كيبوتس) يكبر، يقطنه يهود مهاجرون جاؤوا من اليمن، حالوا بين والد الشاعر وحقله. وحين يعود الشاعر في 1997، بعد غياب 25 عاماً عن قرية الجديدة التي أقام فيها وأهله لاجئين في وطنهم، يزور بقايا قريته المدمرة: البروة، وفي آخر أيامه يكتب قصيدته "طللية البروة".

في القصيدة حوار بين الشاعر وزائر آخر يقول له انظر إلى ما فعلته الصهيونية. لقد سفلتت الشوارع العريضة وأقامت المصانع الحديثة جداً. لقد جعلت من الخراب عالماً حديثاً، فشيدت المباني، وعمرت الصحراء وأزهرتها، ولك أن تعجب بهذا. هنا نتذكر ما قاله سعيد.س لزوجته صفية: "انظروا كيف أننا أحسن منكم وأكثر رقيا. عليكم أن تقبلوا أن تكونوا خدما لنا معجبين بنا...". كأنما الصحفي مرافق درويش في رحلته يقول هذا.

محمود درويش يجيب قائلاً: من قال إن الحضارة والصناعة هي ما نريد وهي أفضل بالضرورة للناس كلهم. قد يعيش الإنسان في بيئة عادية عيشة أكثر هدوءاً مما يعيشه في بيئة متطورة وحضارية. هذه الفكرة تحفر عميقاً لدى درويش، فقد برزت في قصيدته "خطبة الهندي الأحمر ما قبل الأخيرة أمام الرجل الأبيض" من ديوان "أحد عشر كوكباً" (1995).

لقد جنت الصهيونية على الشعب الفلسطيني جناية كبيرة، ما زالت آثارها حاضرة بقوة، وقد تمتد إلى حين لا يعلمه إلا الله. وكم من فلسطيني يتمنى أن يموت في قريته في فلسطين وهو لا يملك من متاع الدنيا شيئاً، يقول درويش في "طللية البروة":

"ويقاطع الصحفي أغنيتي الخفية: هل

ترى خلف الصنوبرة القويّة مصنع

الألبان ذاك؟ أقول: كلا. لا

أرى إلا الغزالة في الشباك.

يقول: والطرق الحديثة هل تراها فوق

أنقاض البيوت؟ أقول: كلا. لا

أراها، لا أرى إلا الحديقة تحتها،

وأرى خيوط العنكبوت ..." (ص111)

ونحن نقرأ هذا المقطع نستحضر بعض الصور التي ظهرت في الترجمة العربية لرواية (هرتسل) وتحديداً الصور التي تقف إلى جانبها صور مختلفة، الصور التي تظهر ما أجرته الصهيونية على المكان من تعديلات والصور التي تظهر ما كانت عليه فلسطين قبل النشاط الصهيوني. وكما ذكرت فإن الترجمة لم تظهر صوراً أخرى هي صور المخيمات الفلسطينية في المنافي منذ تأسيسها حتى تاريخ صدور الترجمة، فقد أقام اللاجئون عشر سنوات بالتمام والكمال في خيام كانت الأمطار الغزيرة والرياح القوية تقتلعها في الشتاء، من جذورها – إن كان لها جذور.

المصادر والمراجع المعتمدة في كتابة هذه الدراسة هي:

- آميل حبيبي، الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، ط، دار شروق عمان، 2006.
- ثيودور هرتسل، أرض قديمة – جديدة (الطنويلاند) ترجمة مثير حداد، تل أبيب، دار النشر العربي، 1968.
- عادل الأسطة، اليهود في الرواية العربية: جدل الذات والآخر، رام الله، 2012.
- الأديب الفلسطيني والأدب الصهيوني، منشورات شمس، فلسطين، 1993.
- غسان كنفاني، الآثار الكاملة، الروايات، ط3، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1986.
- الآثار الكاملة، الدراسات الأدبية، المجلد الرابع، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1998.
- محمود درويش: لماذا تركت الحصان وحيدا، ط1، بيروت، 1995.
- كزهر اللون أو أبعد، دار شروق، رام الله، طبعة خاصة بفلسطين 2005.
- لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي، ط1، بيروت، 2009.